سيرة عطرة لشهيد من الصفوة

لا شك أن الجهة التي خططت لقتل العقيد تيسير زايد خطاب جهة محترفة. فمجرد أن يكون تاريخ قتله هو تاريخ يوم ميلاده يوحي أن المخططين المجرمين، سواء كانوا الأعداء المباشرين أو وكلاءهم المرتزقة بالقتل، قد اختاروا وقت التنفيذ عن دراية بالسجل الشخصي الدقيق للرجل وعن علم بذلك التاريخ. فكأنما توعدوا في قرارة أنفسهم أن ربيعه الرابع والأربعين سيكون ربيعه الأخير.

كان فتى مميزا. أنبته بيت فلسطيني مر بغربال الأيام وعاصر شقاء الهجرات المتعددة: هجرة ٤٨، وهجرة ٦٧، وهجرة ٧٣، وغيرها وغيرها. أما هجرة ٤٨ فلم يشهدها تيسير بل كابد والده ووالدته أهوالها. لأنه من مواليد دير البلح ١ / ٩ / ١٩٥٧... أي أنه ولد بعد قرابة ستة أشهر من انقلاع جيش الاحتلال الصهيوني من قطاع غزة إثر هزيمة العدوان الثلاثي ورحيل شركاء إسرائيل بريطانيا وفرنسا عن بورسعيد يجرون أذيال الخيبة والفشل..وشاءت الأقدار أن تنتقل الأسرة بسبب ظروف عمل الوالد من دير البلح إلى مصر. وهكذا دخل الصبي العاقل الرصين المدارس الابتدائية في القاهرة. وتصفه والدته في تلك المرحلة أنه كان وهو ابن سبع سنوات يتصرف تصرف الرجل المدرك. وكم من طفل فلسطيني انتقل من الطفولة المبكرة إلى الرجولة دفعة واحدة. والسبب تفتح العيون في الطفولة على الظلم والعسف وقصة البيت المفقود والأرض المضاعة والموطن الأول الذي يحق لكل فلسطيني عرف بلاده أن يشعر بالحنين إليه، كيف لا وهو أجمل بلاد الدنيا وأطيبها مناخا وأعذبها ماء وأهنأها عيشا وعشرة؟!

للأسرة الفلسطينية وللمعلمين الفلسطينيين الفضل في غرس حب الوطن في نفوس الأجيال الصغيرة التي ولدت بعد هجرة عام ١٩٤٨ ولم تر فلسطين وإنما سمعت بها من الكبار. وربما كان في حديثهم مبالغة، وربما أفاضوا في محاسن المدن والقرى التي أخرحوا منها، وربما لم يقصدوا المبالغة ولكن النكبة هبطت بمستوى حياتهم فجأة فقارنوا بين عيشة الموطن التي ضمنت لهم الكرامة على الأقل وبين عيشة المخيم الذي حشروا فيه حشرا وعانوا فيه المصاعب والهموم. وهكذا كان الوطن جنة بمقياس المقارنة بين عيش وعيش وبين ماض وحاضر، ناهيك عن مقياس المقارنة بين فلسطين الأرض والمناخ والتضاريس وبين غيرها من بلاد الناس.

ووالد تيسير ووالدته إنسانان منتميان شريفان. وفي ذلك البيت الذي كان الصبي فتاه البكر تلقى أولى دروس الوطنية، وهي حب الوطن والتعلق به وكراهية الظلم مع التصميم على العودة ولو كره الغاصبون. ففي أعماق قلب كل فلسطيني صغير أو كبير رفض وإباء للظلم الذي حاق بالفلسطينيين من غير ذنب اقترفته أيديهم. وإباء الظلم فطرة إنسانية قبل أن تكون تربية وتوجيها.

وكانت مصر أثناء تفتح وعي الطفل الذي دخل المدرسة الابتدائية تعيش عصر جمال عبد الناصر وأيامه المجيدة حيث القضية الفلسطينية هم أساسي من هموم الرئيس والدولة والإعلام والرأي العام، وحيث مصر مركز حركة التضامن الآسيوي - الإفريقي وعاصمة معدودة بين أهم ثلاث عواصم لدول عدم الانحياز. وخلاصة القول أن الفلسطيني المقيم في مصر يشعر أنه معني وأن قضيته معنية بكل ما يدور هناك.

ومثل هذه الأجواء تعزز في نفس الطفل المتفتح إحساس الاعتزاز الوطني والمساندة القومية. ويمكن القول من هذه الناحية أن الصبي تيسير تلقى تعزيزا مناسبا للأسس التربوية التي غرسها فيه التوجيه الأسري.

كان والد تيسير منخرطا في نشاطات حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح منذ البدايات. وقد تلقى توجيها بالسفر إلى القطر العربي السوري للعمل في اللجنة العلمية التابعة للحركة هناك. وانتقلت العائلة بكامل أفرادها واستقرت في دمشق، وجلس تيسير على مقاعد الدراسة الإعدادية ثم الثانوية في مدارس دمشق وتلقى المناهج المفعمة بالفكر القومي والرابطة القومية. وأبدى تفوقا في دراسته. ودفع به والده الحريص على توجيه قواه في تلك المرحلة العمرية إلى ما هو جدي ومفيد نحو رياضة الجودو والكراتيه، فأثبت تفوقا فيها يضارع تفوقه في الدراسة، وحصل على حزام أسود (دان ٢).

وكأنما شعر بعد حصوله على الشهادة الثانوية أن الواجب يناديه، فلم يلبث أن انتقل من سوريا إلى لبنان وانتظم متفرغا في صفوف حركة فتح، وتعرف إلى الشهيد القائد صلاح خلف أب المؤسسة الأمنية

الفلسطينية الذي اكتشف قدرات الشاب النشيط الهادئ العامل في صمت، فقربه واعتمد عليه في العديد من مهام العمل السري. وفي تلك المرحلة عرفته طبعا النخبة المحيطة بصلاح خلف وعرفه الرجل الثاني في الأمن الموحد أمين الهندي. وحينما حدثت النقلة الكبرى والتوقف الاضطراري في البرهة التي أعقبت خروج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان إلى تونس، قرر أبو إياد أن الفرصة مناسبة لإرسال الشاب الموثوق ليتلقى علما أكاديميا يسند ممارسته العملية ويصقل شخصيته حتى يصبح من أعمدة الأمن وقادته الأكفاء، واختار أن يرسله إلى أكاديمية العلوم الأمنية في تشيكوسلوفاكيا (وذلك بطبيعة الحال قبل أن يتفسخ المعسكر الشيوعي وقبل أن تصبح تشيكوسلوفاكيا دولتين اثنتين).

كانت العودة إلى الدراسة بعد سنوات بيروت الخمس المليئة بالعمل والممارسة فرصة ذهبية أحسن الشاب الجاد استغلالها. فعلى الرغم من كونه أصغر طلاب الأكاديمية الأمنية سنا فقد برز بروزا ملحوظا، الأمر الذي دفع إدارة الأكاديمية إلى تشجيعه للاستمرار في دراساتها العليا. وفي برهة قياسية حصل على درجة الدكتوراة في اختصاص القانون الدولي والأمن الجنائي.

ولدى عودته إلى تونس وجد المهام العديدة في انتظاره. وكانت أول مهمة كبيرة تسند إليه فيثبت جدارته المعهودة من جديد هي اضطلاعه بالمسؤولية عن أمن المؤتمر السادس لحركة فتح عام ١٩٨٩. وتوالت المهام تباعا في مخاض ولادة السلطة الفلسطينية على طريق أوسلو. ودائما كان تيسير خطاب حاضرا جاهزا مختصا وموثوقا في مجال حماية الشخصيات القيادية. وتخلل تلك الفترة زواجه من سناء شقيقة مناضل آخر من جهاز أمن أبو إياد هو فؤاد النجار. فكانت تلك المناسبة مثار ارتياح أبو إياد الذي يهتم لكل صغيرة وكبيرة من شؤون رجاله العاملين معه.

لم يجد اللواء أمين الهندي أفضل من تيسير زايد خطاب مساعدا له في قيادة جهاز الأمن بعد العودة للوطن. كان ملف تيسير نظيفا عامرا بالإنجاز ومدعاة للثقة واليقين بإخلاصه وإمكان الاعتماد عليه. وأسندت إليه في قيادة الجهاز مسؤوليات التدريب الأمني، بالإضافة إلى مأموريات الاتصال الخارجي.

وحافظ تيسير خطاب طوال حياته على القيم الأساسية التي تربى عليها. ظل ملتزما مستقيما منضبطا. وظل دؤوبا عاملا في صمت. وظل محترما بعيدا عن الصغائر.

قيل لي إن بعض معارفه رغبوا في الاستفادة من مركزه في الحصول على امتياز ما. ولكنه امتنع عنهم. فلما أحرجوه قائلين: لماذا تتمنع عن تلبية طلبنا في حين أن الجميع يخدمون جماعتهم؟ أجاب: (من عند كل الناس تطلع عوجا، لكن من عند تيسير خطاب تطلع عدلة). وهذه كلماته بنصها كما قصها علي بعض من عرفوه.

ما تزال جريمة اغتيال الدكتور تيسير خطاب مقيدة ضد مجهول. وهناك أكثر من جريمة اغتيال سياسي كلها مقيدة ضد مجهول. ولكننا في بلاد مقدسة لا يبقى فيها السر القبيح مخبوءا. ويوما ما ستنكشف الأيدي الأثيمة التي نفذت مؤامرة اغتيال الرجل الذي كان أمينا بما فيه الكفاية وذكيا بما فيه الكفاية ولكنه ـ وهو العليم بمباديء أمن حماية الشخصيات ـ لم يتخذ لنفسه الاحتياطات بما فيه الكفاية.

ألف رحمة على تلك الروح الطاهرة، روح الجندي الفلسطيني المخلص والوفي، الذي عرفته وطنيا مخلصا ومناضلا فعالا ومثالا للتهذيب والرغبة في المساعدة، انطلاقا من شعوره أنه صاحب رسالة وابن ناس طيبين.